صبرى موسى

السيدة التى والرجل الذى لم!

Looloo
www.dvd4arab.com

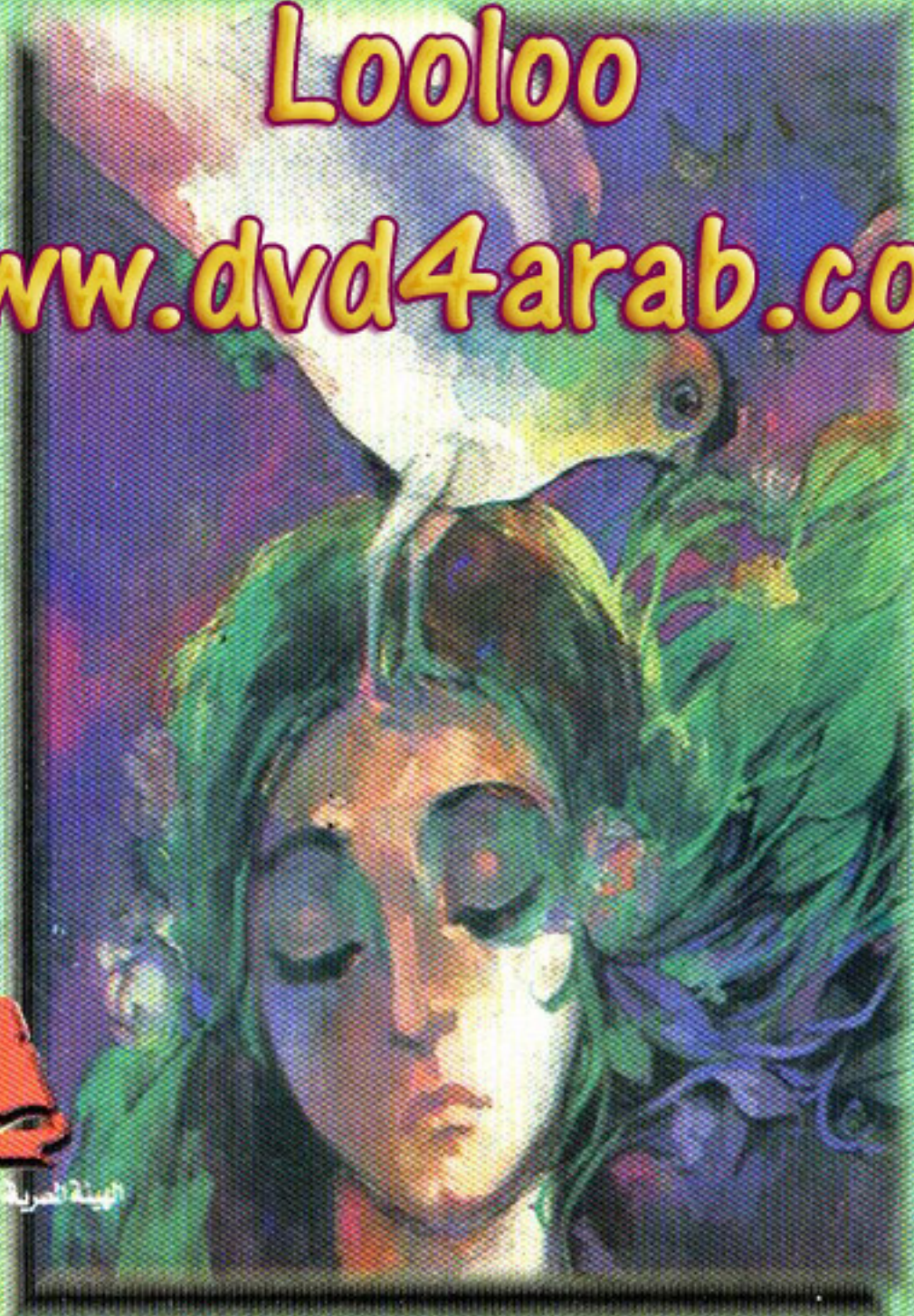

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إلتباس ...!

كان اليوم جمعة وكان هو فى سابع نومة .. لكنه حتى لو كان اليوم سبت أو أحد وكان هو مستيقظا غير نائم ، فمن عادته أن يستغرق بعض الوقت فى التفكير حتى يدرك أى يوم من أيام الاسبوع ذلك اليوم!

على أية حال كان هو يظن أن اليوم جمعة حين استيقظ على رنين التليفون ، فمن عادته أن يسحب التليفون إلى جوار فراشه حتى يوقظه الرنين فى اليوم التالى ، ولو لم يفعل ذلك لظل نائما بضعة أيام .. فمن عادته ألا ينام ليلا مثل خلق الله ويستيقظ مع بكورالصباح ، لكنه ينام فقط حين يصبح ذهنه غير قادرعلى التجميع ويصبح جسده غيرقادرعلى الحركة ، حينذاك يسحب التليفون إلى جوار فراشه ويلقى بجسده فوق ذلك الفراش ويستغرق فى النوم .. وعندئذ لا تستطيع أية قوة على الأرض أو فعل أو حركة أن توقظه .. حتى رنين التليفون نفسه لا يوقظه إلا إذا كان قد أمضى فى النوم ساعات ست أو خمس على الأقل ؟

فى ذلك اليوم الذى كان مفترضا أنه يوم جمعة أيقظه رنين التليفون فأدرك أنه قد أخذ بعض كفايته من النوم ، ورفع السماعة وهو ينظر إلى الساعة المجاورة للفراش فوجدها تشير إلى الواحدة والنصف ، وإذا بصوت أمه الرصين المفعم بالحنان والطيبة مشوبا ببعض القلق .. وقال أهلا ورحب بها ، فهو ولدها الوحيد البكر وقد جاءت بعده مجموعة من البنات فكانت تعتبره عائلها وسندها فى الملمات والمسرات بعد أن كبر والده واقتعد البيت ...

قالت له : أبوك لم يعد حتى الآن ، ذهب يصلى الجمعة ولم يعد..!

ابتسم فى سره وهو يقول لها : أما زلت تقلقين عليه ؟ .. الساعة مازالت الواحدة والنصف والصلاة لم تنته بعد .. خطباء المساجد يتبارون فى إطالة الخطبة هذه الأيام كما تعلمين ، وهو يحب الإستماع!

أدركت أمه أنه كان نائما وأنها أيقظته .. فقالت : طلبتك أكثر من مرة وظننت أنك لم تعد بعد ، الساعة الآن الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، وقد انتهى يوم الجمعة واليوم هوالسبت فى بدايته .. وأنا لا أستطيع النوم لأن أباك لم يعد بعد .. ليس من عادته أن يتأخر لما بعد منتصف الليل !

بدأ ينتبه وأخذ ذهنه ينشط ويعمل بسرعة ...

فكر أولا كم من الأشخاص قد طلبوه خلال نومه دون أن يسمع الرنين ...

وفكر ثانيا فيما كان يفعله قبل أن يبدأ هذا النوم الطويل ...

كان يكتب شيئا ولم يكمله .. وقد بدأ النوم عندما توقف ذهنه عن التجميع وبدأت الجمل والكلمات تتناثر على صفحات الأوراق دون حرارة أو إحساس ...

وفكر أيضا فى أن يقول لأمه أن أباه لابد قد ذهب عند واحدة من الأخوات ، لكنه انتبه لنفسه عند هذا الحد وبدأ يأخذ الأمر مأخذ الجد .. وغادر سريره وهو يحمل سماعة التليفون ، فهو يعرف أمه جيدا ، وما كانت ستطلبه قبل أن تطلب شقيقاته واحدة بعد واحدة وتتأكد من عدم وجود أبيه هناك .. ومعنى هذا أن أباه لم يذهب إلى أية واحدة من بناته ، فبدأ يساوره القلق ...

وقالت أمه أن أكثر مايزعجها أن أباه لم يأخذ حافظة نقوده معه ، ولم يأخذ أيضا بطاقته العائلية وأوراقه الشخصية التى اعتاد أن يحرص على حملها !

***

فى السنوات الأخيرة كان من عادات أبيه أن يصلى الجمعة فى مسجد السيدة زينب .. خطوات من البيت ويكون فى الجامع ، لكن الساعة تقترب من الثانية صباحا ، والجامع لابد مغلق الآن ...

قال ذلك لنفسه وهو يرتدى ملابسه على عجل .

ماأجمل القاهرة وأهلها نيام .. صحيح أن أهل القاهرة وأهل مصرعموما هم نيام دائما ..لكن نومهم وهم سائرون نهارا هو أقرب

إلى الإغماء أو دوخة المخبوط على رأسه ، أما نومهم بالليل فهوالنوم الحقيقى ! ..

قال ذلك لنفسه وهو يقود سيارته فى طريقه إلى ميدان السيدة .

هل نسى أباه أن يأخذ حافظة أوراقه ؟!

كيف يتحرك فى هذه السن المتأخرة فى تلك الشوارع القاهرية الفظيعة دون هوية ؟!

الزحام الخانق والسيارات التى تتدافع وكأنها هى التى تقود أصحابها ...

لو كانت معاه أوراقه كان قال يمكن سافر البلد ، هو بيحب البلد ، لكن من غيرها يمكن تاه وذاكرته ماسعفتهوش ، وحتى لو حد لقاه وحب يرجعه حايرجعه ازاى .. حايعرف عنوانه منين ؟ ..

قال ذلك لنفسه وقد بدأ انزعاجه يتصاعد وينمو لدرجة التوتر، وأخذت الخواطرالسوداء تتوارد على ذهنه ...

هل يسأل فى أقسام البوليس عن التائهين أو يذهب لأقسام استقبال الحوادث فى المستشفيات ويسأل عن حوادث يوم الجمعة ؟..

هل لا قدرالله قد صدمه أتوبيس أهوج يقوده سائق بلطجى من هذا النوع من السائقين الذين يقتحمون الأرصفة ومزلقانات السكة الحديد ، أو يلقون بركابهم فى الترع والأنهار ؟..

هل عليه أن يبحث فى المشرحات ويرى الفظاعة وهو يقلب النظر فى جثث كبارالسن ضحايا حوادث الطرق والمواصلات ؟ ..

أو يلطف الله به ويعثر عليه فى قسم المفقودين الذين تضيع منهم ذاكرتهم فجأة ويجمعونهم فى مديرية الأمن .. أوفى الملاجيء ..؟

كان الجامع مغلقا وميدان السيدة شبه خاو فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ...

وقال لنفسه أصلى الفجر فى الجامع واسأل الشيخ عنه ، أو بعض المصلين ، قبل أن أبدأ البحث حين يطلع النهار .

***

لقد لاحظ فى الشهور الأخيرة أن ذاكرة أبيه قد أصابها بعض الخلط أو الإختلاط، فكان ينادى زوجته وكأنها أمه .. وينادى بناته بأسماء شقيقاته المتوفيات من سنين طويلة !

هل صحيح إنه كلما صعد الإنسان فى الزمن هبط إلى طفولته ؟.. أم أن الذاكرة هى التى تعجز عن مواصلة العمل فى جمع التفاصيل الجديدة والربط بين أجزائها واستخلاص معانيها ؟!

أم هى الوحدة والعزلة فى وسط متكامل من الحريم .. بناته المتزوجات حين يجئن للزيارة فيلقين إليه بالسؤال الروتينى عن الصحة والأحوال .. ولا ينتظرن إجابة ، ويمضين الساعات فى أحاديث طويلة متواصلة مع أمهن التى هى زوجته .. مافيش موضوع مشترك للكلام بينى وبينهم ، لكن مع أمهم ستات زى بعض واهتماماتهم واحدة ..!

هذا ما كان يقوله والده دائما ...

كان يتعشى معهما مرة ، والده ووالدته وبعض الأخوات والأحفاد ، وبعد العشاء أخذه والده إلى البلكونة ليشربا الشاى معا ويتكلمان ، رجل لرجل ، قال والده ذلك وهو يسحبه من ذراعه إلى البلكونة ويقدم له الشاى .. وبعد مقدمات طويلة عن صحته الجيدة فى مثل سنه هذا - لم يمرض أبوه طوال حياته - قال إنه يشكو من الوحدة وينوى أن يتزوج..!

وقتها فوجئ بكلام أبيه وقاوم رغبته بصرامة غير معلنة دون تفكير، وراح يماطله طالبا التأجيل لتدبيرالمسألة واختيار الزوجة والوقت المناسب ...

هل يكون الرجل الكبير قد انقهر من المماطلة التى تعنى الرفض وكتم فى نفسه .. وأخذ الدنيا فى وجهه وطفش منهم ؟!

وتذكر حين خرج من عمله مبكرا منذ أيام وقرر أن يزور والديه ويتناول معهما الغداء .. وجد البيت متوترا وأمه لا تستطيع الوقوف على قدميها من الحيرة والتعب ، كانت جالسة فى الصالة وأبوه فى غرفة النوم يجمع ملابسه فى حقيبة السفرالقديمة الكبيرة ...

تساءل : خير ياماما إيه الحكاية ..؟

قالت وهى تمسح دمعا طفر من عينيها لم تستطع أن تحبسه : شوف أبوك بيقول إيه ..؟

وجاءه صوت والده من الغرفة رصينا هادئا كعهده به : باقول إيه؟.. باقول لها شوفى حسابكم كام أنا ماشى خلاص .. حاروح لوكاندة تانية ، أو أروح لصاحبى خفاجى أقعد معاه .. اللوكاندة دى ما عدتش قادر أعيش فيها ..الخدمة بقت سيئة وزى الزفت ..!

هل نسى فعلا أوراقه الشخصية أم أنه قد تعمد نسيانها ..؟

قال ذلك لنفسه وهو يشعر بغصة تقبض صدره لأنه لم يعط لأبيه ما كان يستحقه من اهتمام !

***

وهو يركع وينهض ويعاود السجود بين المصلين كان يحاول أن يتذكر ماكان يحكيه له والده عن صاحبه الذى يشبهه والذى يصلى معه كل جمعة فى السيدة .. تلك علامة يستطيع أن يذكرها لشيخ الجامع بعد أن تنتهى الصلاة لعله يتعرف منها على أبيه ويذكر له أى شئ عنه .. وقد صدق حدسه وقال شيخ الجامع على الفور : قصدك الحاج مرتضى .. ده رجله انكسرت بعيد عنك وجبسوها ، وبقاله جمعتين ما بيجيش .. والحاج محمد ، والدك ، كان بيصلى الجمعة معانا امبارح وسألنى على عنوانه عشان يزوره .

أشرق الأمل فى قلبه وانزاح الهم لحظة وهو يأخذ العنوان من الشيخ .. ولم ينتظر طلوع النهار بل انطلق بسيارته فى دروب السيدة وشوارعها الضيقة حتى إستطاع العثورعلى البيت ...

البيوت فى ذلك الشارع القديم الضيق بدون أرقام ، لكن الحلاق والمكوجى والبقال أكدوا له أن السيد مرتضى عبد الواحد يقيم هنا بالفعل فى الطابق الرابع من البيت الذى أشاروا له عليه ..

كيف يمكن لمثل هذا البيت القديم أن يحمل تلك الطوابق الأربعة..؟!

قال ذلك لنفسه وهو يتحسس طريقه فى ظلام المدخل .. وكان السلم المتهالك يصعد عموديا بطريقة تثير الخنق وتقطع النفس ، وقال لنفسه أن المصاعد الكهربائية قد أفسدت البشر .. وأخذ يتحامل على قدميه ويواصل الصعود وقد بدأ يلهث ويتعثر فى درجات السلم المتآكلة وبلاطها المتكسر .. لا عجب أن يتعثر السيد مرتضى عبد الواحد أو عبد الواحد مرتضى ، ويسقط على هذه السلالم فيكسر ساقيه فقط .. بل العجب أن تسلم رقبته !

لا توجد أرقام أو أسماء على أبواب الشقق فى هذه البيوت القديمة الضيقة ، وخلال انهماكه فى مقاومة الجاذبية وملاحظة درجات السلم المتآكلة نسى أن يحصى الطوابق ، ووجد نفسه فى السطوح التى لا باب لها .. فتوقف يلتقط أنفاسه ويعدل من شأنه ، ثم استدار وعاود الهبوط إلى الطابق الرابع ...

دق الباب وانتظر ثم كرر الدق عندما لم يستجب لدقاته أحد ، وأوشك أن يستدير ويهبط ليدق باب الطابق الأسفل – لعله قد أخطأ فى عد الطوابق – لكن الباب انفتح بقوة فجأة لتظهر فى فراغه امرأة

مبتسمة ، تقاوم بلا كلل كى لا يتخطى عمرها السنوات الخمسين .. بيضاء ممتلئة لكنها رشيقة ، تفيض بالحيوية والخفة رغم وزنها الثقيل نوعا . سألها عن السيد مرتضى فقالت :

– موجود ، اتفضل ..

لم تعطه الفرصة ليواصل أسئلته ، بل أفسحت له وانداحت عن الباب برشاقة ليدخل وهى ترحب به كأنها تعرفه منذ سنوات .. فدخل إلى صالة تستضيف المطبخ ، ويستطيع الجالس فيها أن يرى الحمام ودولاب غرفة النوم .. وكانت السيدة تقلى بيضا وبراد الشاى يغلى على النار، فشعر بالحرج لاقتحامه حياة الأسرة اليومية فى ذلك الوقت المبكر من الصباح .. وود لو تترك ما هى مشغولة به دقيقة واحدة ليسألها عن الحاج مرتضى من باب اللياقة والذوق ، ثم يسألها إن كان والده الحاج محمد قد زاره أم لا ، وإن كان قد زاره فمتى ، وإلى أين ذهب .. لكى يذهب هو أيضا ويواصل البحث ...

أمى زمانها قاعدة على نار دلوقت مستنية تسمع منى أى خبر عن أبويا ..

قال ذلك لنفسه وهو يخرج علبة سجائره من جيبه ، ثم يعيدها إلى جيبه ثانية دون أن يخرج منها سيجارة خشية أن يزعج البيت الضيق بالدخان ...

وأدارت السيدة وجهها له وهى تقلب البيض فى الطبق وسألته :

– حضرتك طبعا قريب الحاج محمد ..؟

أجابها بلهفة :

– أيوه .. أنا إبنه ...

– أهلا وسهلا .. يبقى تفطر معانا بقى ..

– لا، متشكر، صحة وعافية ، أنا لازم أمشى بسرعة ...

وقالت السيدة وهى تجهز الإفطارعلى صينية كبيرة :

– تمشى إزاى ، مايصحش ، زمانهم صحيوا وحانفطر كلنا مع بعض ...

شئ كالسحر فى كلمة كلنا جعله يشعر كأنما قد عثرعلى والده .. وسألها بلهفة :

– هو جه زاركم إمبارح ..؟

– جه ياحبة عينى بعد صلاة الجمعة يسأل عالحاج لما مالقيوش فى الجامع ..وهو طالع السلم المنيّل بتاعنا حصل له اللى حصل لمرتضى ، ورجله انكسرت برضه وجبنا رضا المزين جبسهاله ، ورقد جنب صاحبه .. والأسطى رضا قال مايمشيش عليها لمدة شهر ..!

حمد الله على لطفه فى القدر واطمأن قلبه ، وأقبل على دعوة الفطور بانشراح .. وحملت السيدة الصينية الى غرفة النوم وهو وراءها .. ورأى الرجلين الكبيرين ممددين على الفراش وساقاهما المجبستان

مرفوعتان على شباك السريرالحديدى .. ولاحظ التشابه الواضح فى الملامح بين أبيه وصاحبه .. ربما لأن كبار السن عندما يشيخون يصبحون متشابهين فى الغالب ، قال ذلك لنفسه وهويتأمل الرجلين بينما كانت السيدة توقظهما وهما يزومان ويقاومان اليقظة كالأطفال .. ورغم الشبه الواضح فى الملامح والملابس التى ينامان بها إلا أنه قد تعرف على أبيه من ابتسامته .. شئ من روحه الذكية السمحة كان يشع من وجهه فيبدو دائما مبتسما ، حتى وهو غاضب أو وهونائم !

وهو قد ورث ذلك منه .

***

حين ذهب إلى أمه يطمئنها عاتبته لأنه لم يحضر أباه إلى بيته...

قال لها أنه خشى أن يصيبه مكروه إذا نقله ، وقد رآه سعيدا برفقة صاحبه فشجعه ذلك على تركه هناك إلى أن يشفى .. وسوف يقوم بزيارته كل يوم ...

وقالت أمه : أنا كمان لازم أزوره ..

فقال بلهفة : لأ، بلاش إعملى معروف .. مافيش حتة هناك ترقدى فيها لو حصل لك اللى حصل لهم على السلم !

وقد تكررت زياراته لبيت الحاج مرتضى وهو يحمل الأطعمة والأدوية والحلوى للمريضين ، وكان قد تأكد له أن كسورهما ليست من النوع الذى يحتاج علاجا بالمستشفى ، وأن جبيرة الجبس سوف تجبر

تلك الكسور إذا لزما الراحة وعدم استعمال القدمين لمدة شهر، وهذا ما يفعلانه .. كما تأكد له إنهما سعداء بوجودهما معا .. يطالعان الصحف ويتبادلان التعليقات والنوادر ويلعبان الدومينو والطاولة ، وهكذا يبقيان فى فراشهما طوال النهار والسيدة الطيبة ترعاهما معا كأنهما طفلاها ..

لكنه بعد فترة لاحظ أن السيدة يختلط عليها الرجلان ، فتعامل زوجها كأنه صاحبه الضيف ، وتعامل الضيف كأنه زوجها .. وكان يقول لنفسه ربما من الإجهاد والتعب فالمرضى عبء ثقيل .. وعرض عليها أن يستأجر خادمة تساعدها ، فضحكت ورفضت .

ولاحظ بمرور الأيام أن هذا الخلط أو الإلتباس قد استقر عند السيدة وعند الرجلين أيضا ، على أن أباه الحاج محمد هو زوجها ، وصاحبه الحاج مرتضى هو أبوه ؟ !

بدت المسألة كأنها لعبة ممتعة يتسلون بها وتشيع فى البيت جو المرح والسعادة ، فكان يشاركهم فيها بعض الأحيان ، وغالبا حين يكون مزاجه محبطا ويريد أن يتجنب الجدل والمهاترة ..!

وبعد أن انقضت أسابيع ثلاثة قالت له السيدة : والدك بكرة يفك الجبس ..؟

وفعلا جاء الأسطى رضا المزين وأخذ يفك الجبس عن ساق الحاج مرتضى عبد الواحد أوعبد الواحدمرتضى بعد أن أمضى فيه شهرا بالكامل ، وفوجئ بالحاج ينهض ويرتدى ملابسه وهو يقول له :

– يااللا بينا يابنى نروح بيتنا ، أدينى بقيت زى الفل أهه والحمد لله !

بينما كانت السيدة زوجته ووالده الحاج محمد يعترضان على هذه العجلة بقولهما :

– البيت بيتكم مافيش داعى للاستعجال .. استنو شوية لما يتعود على المشى ؟!

لكن الحاج مرتضى مال على أذنه وهمس :

– أنا بقيت كويس خدنى بقي ، عشان مانتقلش على الناس أكتر من كده .. البيت ضيق ومش عارفين ياخدوا راحتهم ..؟

نظر إليه مذهلا وقد اختلط عليه الأمر هو أيضا فمال الحاج مرتضى على أذنه ثانية وهمس فيها بحدة :

– الست لما بتطلب حلالها بتاخده على جنب فى الصالة وتنام معاه .. وانا بابقى محرج ..!

***

– من هنا ورايح اللى يقول لك أنا متأكد ، قول له انت ولا مؤاخذة حمار..؟

قال ذلك لنفسه وهو يقود سيارته فى زحام ميدان السيدة فى الطريق إلى البيت ، حيث تنتظره أمه ...

وكان الحاج مرتضى مسترخيا إلى جواره يتأمل وجوه الناس من نافذة السيارة بفرح ودهشة ، كأنه يراهم لأول مرة .. فأخذ يتساءل كيف ستواجه أمه هذا البديل الملتبس ..؟

وقال لنفسه : جايز هى كمان يلتبس عليها الأمر والحكاية تعدى عليها .

هواجس ..؟

كان الطريق الزراعى الجديد يمتد مصقولا وسط الحقول الخضراء المنبسطة أمام عينى الأستاذ صفى ، وهو مسترخ وراء عجلة القيادة فى سيارته المجددة التى تنهب ذلك الطريق الجميل نهبا ، لتدخل به إلى مشارف القاهرة قبل أن يدخل الليل ...

لقد ترك وراءه منذ لحظات مدينة كفرسعد الصغيرة التى كانت كفرا منذ سنوات قريبة ، وترك وراءه أيضا طريق الميناء الجديد ، وما تزال أمامه ساعتان قبيل الغروب والقيادة متعة فى ذلك التوقيت من النهارالمشحون بالشجن ، حيث يحل التعب بكل المخلوقات بعد عناء اليوم .. فترك الأستاذ صفى لأفكاره العنان .. وكان قد ساءه أنه لم يستطع التعرف على عدد من الشجيرات الخضراء النابتة فى الحقول التى كان يمر بها ...

كيف وأبوه فلاح إبن فلاح ؟ ...

ألهذه الدرجة قد اقتلعتك المدينة من جذورك يا صفى ، بصخبها وطموحها ؟ ... .

وهكذا بدأ الأستاذ صفى - كعادته - يلوم نفسه ، ويلوم المدينة والمدنية والطموح .. والحضارة والوزارة .. والرجعية والإقطاع .. والإنفتاح والثورة .. والثقافة والمثقفين ...؟

أخذ الأستاذ صفى يلوم كل شىء لأنه كان من ذلك النوع الإنسانى الحديث المتوتر، الذى اختلطت أمام عينيه المعايير والقيم فى المفاهيم التى كانت مستقرة ومتعارف عليها بالأكاذيب والنواقص ، دون أن يستطيع منع هذا الاختلاط أو حتى الوقوف فى مواجهته .. وخلال هذه الزيارة السريعة لقريتهم لكى يتلقى العزاء فى وفاة عمه ، دخل فى مناقشة مع خاله الفلاح حول الزراعة فى البلد الآن ، وكان خاله يبدو مقهورا وهو يقول بغضب : نحن الآن نزرع التفاح ، والأناناس والفراولة .. ثم نستدين لنشترى القمح الذى نصنع منه خبيز اليوم ! .

وقال الأستاذ صفى لنفسه معزيا : لا عليك يا صفى .. فحتى المفاهيم الزراعية نفسها قد اختلطت الآن أيضا ..!

وخرج من شروده حين لاحظ رجلا يلوح له بابتهال على جانب من الطريق ، عند حافة الحقول .. كان قد تجاوزه بشروده وسرعته فقال لنفسه : لابد أنه يطلب توصيلة ، فلماذا أتوقف لآخذه ، ثم أتوقف بعد ذلك لينزل من السيارة حيث يريد ، وأعطل نفسى ..؟ ...

لكن الابتهال ، ولعلها اللوعة التى التقطتها ذاكرته فى تلك اللفتة السريعة إلى الرجل ، قد جعلته يفكر : ربما يكون الرجل مريضا ، أو عجوزا متعبا ، أو ربما يستغيث من شئ أو يريد اللحاق بشىء ..

ولسوف يظل منصوبا فى تلك البقعة المقطوعة من الطريق ، فى ذلك الوقت المهيض من آخرالنهار حيث يقل مرور العربات .. ولن يتوقف له أحد .. فلا تكن مثل بقية الناس يا صفى ... .

وأوقف الأستاذ صفى سيارته وعاد بها إلى الخلف حتى حاذى الرجل ، وما كاد يتوقف أمامه حتى اندفع الرجل وفتح باب السيارة متهللا ودخلها على الفور دون استئذان ، وجلس إلى جواره .. فشعر الأستاذ بعدم الارتياح والندم .

***

لم يكن شكل الرجل أيضا يدعو للطمأنينة .. كان حليق الذقن نظيف اسلاس ، لكنه زائغ العينين يرسل منهما بريقا متقطعا لا يريح من ينظر إليه .. وكان يضم إلى صدره لفافة طويلة من ورق الصحف، بعناية شديدة ملحوظة ، فرمقها الأستاذ صفى بريبة .. ولم يجد فى نفسه الشجاعة ليسأله عنها !

ورغم أن الرجل قد أخذ ينهال على الأستاذ بالثناء والدعوات منذ جلوسه ، لكن الأستاذ لم يستطع أن يخفى ريبته وهو يسأله :

- رايح فين ؟

قال الرجل بلهجة سريعة وباردة :

- رايح لأمى ... عيانة ورايح أشوفها قبل ما تموت !

فى الحقيقة لقد مست هذه الجملة قلب الأستاذ صفى ، ولولا ذلك الشعور بالقلق والارتياب لضحك لتلك الإجابة المحزنة .. فهل من المفروض أن يعرف هو فى أية بلدة تقيم أم هذا الرجل ؟!

لكنه على العموم قد هدأ قلقه قليلا ، وسأل الرجل :

– أمك فين .. فى أى بلد ؟

قال الرجل :

– عشرين كيلو من هنا .. كفر دياب ولا مؤاخذة ...

سقط قلب الأستاذ صفى فى قدميه عند سماعه إسم البلدة .. كفر دياب .. وتذكر على الفور تلك الحوادث التى ذكرتها الصحف فى الأسابيع الأخيرة ، والتى اختفى فيها عدد من أصحاب السيارات بسياراتهم .. عند هذه البلدة بالتحديد .. كفر دياب .. نعم كفر دياب ، إنه يتذكرها جيدا .. يا خبرك أسود وهباب يا صفى ، هذه هى نهايتك ... ومية فى المية هذه اللفافة التى يحملها هذا الرجل تضم السكين الكبيرة التى يذبح بها زبائنه ..! ؟

***

بدأ الأستاذ صفى يضطرب ، وبدا ذلك ملحوظا من اضطراب عجلة القيادة بين يديه ، حتى أن الرجل حذره بسرعة عندما أوشك أن ينحرف فى اتجاه إحدى السيارات القادمة من الإتجاه المقابل .

وزاد الطين بلة أن الطريق قد بدأ يزداد وحشة مع ندرة السيارات التى تمر بهما ، فركبته الهواجس .. وأخذ يقود السيارة بعين واحدة ، بينما عينه الأخرى تراقب يدى الرجل واللفافة التى بينهما من طرف خفى ...

وكان عقله الباطن وعقله الظاهر قد أخذا يلعنانه على غباوته التى أوقعته فى هذا المأزق القاتل .. فلولا تعاطفه مع الضعفاء وهوايته لفلسفة الأمور واندماجه فى الطبيعة ومشاكل الزراعة ، لكان قد أدرك من النظرة الأولى لهذا الرجل ، مدى خطورته ، ولكان قد مضى فى طريقه بأمان ...

وقال الأستاذ صفى لنفسه : لو كان فلان الفلانى مكانك لما توقف بسيارته المرسيدس لهذا الرجل فى مثل هذا المكان ، حتى لو رآه غارقا فى دمه ... أو فلان ، أو حتى فلان ، أو فلان ... فهؤلاء الناس لا يضيعون أوقاتهم فيما لا يعود عليهم مباشرة بالنفع ، ولا يفكرون فى غير مصالحهم ، وجميع خطواتهم محسوبة بتخطيط مسبق ، وهى دائما فى اتجاه المسئولين ومن بيدهم أعنّة الأمور ومفاتيح المكاسب والوظائف القيادية .. ولا مكان فيها للمساكين الذين يطلبون خدمة أو مساعدة .. !

كان الرجل يتكلم عن أمه ومرضها ، والأستاذ صفى مشغولا عنه بهواجسه ، وسمعه يقول أن أولاد عمه ينتظرونه على السكة ليأخذوه إلى البيت ، فارتعدت فرائصه .. تلك هى النهاية فعلا يا صفى وهكذا تتم المسألة .. هذا الرجل يذبح الضحية بتلك السكين التى يحملها ، وأولاد عمه يتولون أمر الجثة ، ثم يفككون السيارة ويبيعونها على أجزاء .. وربما يقطعون الجثة أيضا إلى قطع صغيرة ويبعثرونها هنا وهناك ، وتختفى يا صفى أنت وسيارتك ولا يسمع عنك بعد ذلك أحد .. ؟

***

استولى الخوف على قلب الأستاذ صفى بالفعل فأخذ ذهنه يعمل بنشاط وسرعة ليجد لنفسه مخرجا من هذا المأزق الخطر.. وحين رأى فلاحا يعالج جرارا وحوله بعض الأطفال والشبان ، على جانب من الطريق ، أدرك أن الله سبحانه وتعالى قد أرسلهم لانقاذه ، فاتجه ناحيتهم على الفور وأوقف سيارته ، ثم نظر إلى الرجل وهو ينفض الخوف عن نفسه ويزفر أنفاسه براحة وانتصار .. وأمره بالنزول من السيارة !

أخذ الرجل على غرة ، ونظر للأستاذ مبهوتا مندهشا دون أن يستطيع النطق ...

لكن الأستاذ تعجله بغضب :

– انزل باقول لك ، مش حاوصّلك أبعد من كده ...

تعثرت الانفعالات على صفحة وجه الرجل ، وارتبكت يده وهى تبحث عن أكرة الباب ليفتحه ...

وتعثرت قدمه وارتبكت وهو يحاول مغادرة السيارة ، فسقطت اللفافة التى كان يحملها بحرص فى الدواسة ، وانفتحت ، ورأى الأستاذ بداخلها قطعة من القماش الشعبى مزينة بنقوش حمراء وصفراء ...

وقال الرجل بانكسار وهو ينحنى داخل السيارة ليجمع لفافته :

– دى حتة قماش اشتريتها لامى تعملها جلابية ، ربنا يجعلها من نصيبها وتلبسها قبل ماتموت ؟

***

دهش الأستاذ عندما وجد اللفافة المفتوحة خالية من السكاكين ، وقد خيبت كل ظنونه ...

وشعربالخذى والاحتقارلكل تلك الهواجس السوداء التى ملأت نفسه وعقله ، وعكرت صفوه ودفعته لهذا التصرف الشاذ مع إنسان بائس ، يطلب معونته .. وقال للرجل بلهجة متعجلة تشبه الإعتذار :

– اركب ياأخ .. اركب حاوصّلك ..!

***

لاحت لافتة كفر دياب ، وهلل الراكب البائس قائلا بلهفة بائسة وهويشير إلى رجلين نحيلين ، يقفان أمام المقهى الريفى البائس المجاور للافتة :

– ولاد عمى واقفين هناك أهمه ...

ومال الأستاذ صفى بسارته إلى جانب الطريق وأوقفها ، ونزل الراكب البائس يعانق أولاد عمه ويسلم عليهما .. وأقبلوا جميعا على الأستاذ يشكرونه بحرارة ريفية على التوصيلة ، وأصروا على أن يشرب فنجانا من القهوة قبل أن يواصل رحلته ..

ورجوه جميعا ألا يرفض تحيتهم المتواضعة للتعبير عن الشكر ...

وقبل أن يفكر الأستاذ فى القبول أو الرفض ، كان أحدهم قد أقبل يحمل فنجان القهوة تتصاعد منه أبخرة البن الطازج .. فتناوله الأستاذ

وقد أسقط فى يده ، وأخذ يرتشف القهوة وهو يبتسم شاكرا فى حياء حتى مالت رأسه على صدره وفقد الوعى !

ومنذ تلك اللحظة إختفى الأستاذ صفى وسيارته ، ولم يعد يسمع عنه بعد ذلك أحد .

هابى كريسماس ...

لم يعد العقل هو سيد الموقف ، ومضى الواحد يضرب الآخر على رأسه الصغير بكفه المفرطحة فينحنى الرأس ذو الرقبة الطويلة الرفيعة تحت وطأة الضربات المتلاحقة المفاجئة .. ورغم أن الضربات كانت مزيجا مختلطا من الحنق والشفقة إلا أنها كانت موجعة ، جعلت الآخر يصيح صياحا هلعا متلاحقا ...

ولما كان هذا الآخر ديكا روميا فقد كان صياحه غير بشرى فى الظاهر، لا يثير انتباه أحد .. لكنه فى الحقيقة لو أجهدت نفسك قليلا ودققت السمع ، لوجدته بطريقة ما بشريا ..!

الوجه الصغير الاسود المجعد يتلوى ، والمنقار ينفتح ويزعق والعرف الأحمر يهتز، متآكلا من أطرافه كأن ديكا روميا أخر كان يقرضه بين الحين والحين منذ شهور .. بينما الكف البشرية تنهال عليه بالصفعات كأنها واحدة من أطراف حيوان قديم !

وانفتأ من الواحد البشرى بعض غضبه فقرر بينه وبين نفسه أن هذا العقاب يكفى، وربما قد تعب من الضرب أو تبين أن اللذة التى يجمعها من هذا العقاب لا تعادل المجهود الذى يبذله فيه .. وكان عليه أن يجر عربة اليد المحملة مسافة طويلة أخرى فى شوارع فخمة ممنوع على الكارو أن يمر فيها ، وربما يسمحون لعربته بالمرور لو تبين للشرطى أنه لا يشبه حصانا أو حمارا .. فقال للديك :

– والله العظيم لأحطمن رأسك وأقصف رقبتك وأدفع ثمنك لصاحب الدكان .. بكم تظن نفسك مثلا ؟!

وأوقف الديك فوق القفص وهو ينهره ، ولم يكن يبدو على الديك أنه يفهم لماذا عاقبه الرجل .. وكان فوق القفص ديك رومى آخر ، لم يكن فاهما أيضا وإن تكن عيناه الدائريتان الصغيرتان ممتلئتين بمشاعر المشاركة الوجدانية التى لا يملك غيرها . كان قد عوج رقبته طوال الوقت وأخذ يراقب من فوق القفص بعينه اليسرى المتجهة الى أسفل ، وحين رفع الرجل الديك الآخر ليضعه فوق القفص تزحزح متراقصا بجناحيه ليحفظ توازنه وأفسح لزميله مكانا إلى جواره .. وأخذ يربت عليه بجناحه وهو يتأرجح رغم أن الديك المضروب لم يكن يبكى، بينما وضع البشرى ذيل جلبابه فى فمه وأعطى للعربة ظهره واحتضن ذراعيها بذراعيه ثم رفع مقدمتها عن الأرض قليلا وبدأ يجرها .. يثبت قدميه المفلطحتين فى الاسفلت واحدة بعد الأخرى ويندفع بجسده إلى الأمام ويجر الحمل الثقيل .. وكان على الاسفلت ماء آسن ، بقايا

مطر أو فيض بالوعة ، وطعم البرد يفوح فى الشارع ، وبقع من الشمس تظهر خلف سحاب مبلل داكن ...

وعبر الرجل بالعربة مزلقان القطار بالقرب من ضريح سعد زغلول المرتفع أكثر من بناية الخزانة العامة .. وحين مرت العجلات على القضبان اصطدمت وارتفعت وأنخفضت وهى تعبر .. وقال الرجل لنفسه : هاهو الديك اللعين يعود الى فعلته !

كان القفص مائلا لأن العربة مائلة .. فقائمتاها الأماميتان التى تستند عليهما عند الوقوف لابد أن ترتفعا عن الارض حين تسير فكان من الصعب على الديكين – بل حتى على بنى آدم – أن يحتفظ بتوازنه على هذا السطح المليىء بالفتحات .. وكان الديكان يتأرجحان والعربة ماشية ، وبين الحين والحين تنفلت أصابعهما حول أعواد الجريد وتسقط أقدامهما الرفيعة فى القفص فتثير ثائرة الدجاجات التى تقرقر متزاحمة فى داخله .. ويرتفع صياحها بالسباب واللعنات .. وكانت فى قاع القفص صحيفة يومية مفروشة نجا جانب منها من فضلات الدجاج فأخذت دجاجة بيضاء تحدق فيه كأنها تقرأ الخبر الذى يبرز منه ، وكان الخبر يقول أن قبطان الباخرة النرويجية تريزا الراسية فى ميناء بورسعيد قد أبلغ سلطات الميناء بأن البحار بالوساس – ٢٤ سنة – الذى يعمل على باخرته ، قد اختفى من فوقها ليلة أمس .وقد عثرت سلطات الميناء على البحار المختفى فى مدينة بور فؤاد .. جالسا على مقهى .. واضعا ساقا على ساق .. وهو يشرب كوبا من الشاى ويحدق فى الناس..!

وقال البحار أنه ضاق بالبقاء على سطح مهتز .. وأنه كان يرغب فى أن يضع قدميه على اليابسة بعد رحلة طويلة داخل الماء . فألقوا القبض عليه بتهمة دخول البلاد خلسة دون الحصول على تأشيرة دخول ..!

وكان الديكان يتأرجحان غير قادرين على الإمساك بتوازنهما ، وكان المضروب لسوء حظه أقرب الاثنين الى رأس الرجل .. فكان ينقرها بانتظام وهو يروح ويجىء مؤرجحا مختل التوازن .. فيضمر الرجل الشر للديك فى نفسه حتى يعبر منطقة المطبات ...

قال الديك الآخر لزميله وهو يهتز :

– هل أوجعك .. أرى جلبابه ملوثا بالدم ؟

فهز الديك الأول رأسه – وكان يتظاهر بالحكمة ثم قال :

– ليس دمه على كل حال ، ولم يسقط لحسابه ..

وعوج منقاره بترفع !

فقال الديك الثانى بلهفة :

– لكنه ليس دمك أيضا ؟!

– على العكس .. بطريقة أو بأخرى هو دمى ، لقد رأيت بعضه وهو يتناثر ويسيل حول العنق .. الأسود اللامع على أخضر والأحمر البراق ، لونان يذهبان بالعقل ، بينما الواحد يهتز ويتراقص ويقذف بنفسه إلى الفضاء قبل أن تهمد حركته ويذهب فلا يعود ...

واختلت العجلات فاهتز القفص واختل توازن الديكين فعاد حكيمهما يقرع بمنقاره رأس الرجل الذى يجر العربة وظهره إليهما ، فيزوم ويزمجر ويسقط ذيل جلبابه من فمه الذى تتصاعد منه الشتائم مهددة بالويل بعد قليل . وخلال الاهتزاز وفقدان التوازن تبادل الديكان مكانيهما دون قصد واحتل المنقار الثانى مكان المنقار الأول من رأس الرجل ، بينما الديك نفسه يتساءل وهو ينظر للحكيم بعينه الأخرى :

– لابد أن ذلك سيحدث لنا أيضا ، الاحمر يسيل حول الاسود .. ألا يخيفك هذا ؟

– لا أظن .. لابد أنه شىء مبهج حين يذهب الواحد فلا يعود .. رأيتهم جميعا يرقصون عندما حدث لهم ذلك .

وخرجت العجلات من دائرة المطبات فترك الرجل ذراعى العربة وهو ينفث غيظه ، وأعاد ذيل الجلباب إلى فمه ، وأطبق بكفه على عنق الديك الذى ينقره :

– تعال يابن ال ... جاءت ساعتك ، ولقد حذرتك مرارا ...

ومضى يسب أباه .. وأهان أمه فى عرضها واتهمها بتعدد الأزواج رغم أن كل الدجاجات تفعل ذلك ، وأخذت الكف المفلطحة تنهال على الرأس الصغير بالضربات دون أن يتدخل أحد .. وكان الشارع فى تلك المنطقة قد بدأ يفقد هدوءه .. وقد عبر بهم أتوبيس مزدحم بالذكور الملتصقين بالأناث .. وفى السماء فوقهم بين العمارات كانت أسلاك التليفون المشدودة التى تقف فوقها العصافير ، تحمل مكالمة بين المعلم

الكبير فى دكان الدواجن وبين سيدة ضارية الصوت تتساءل عن الديوك والفراخ .. فأكد لها المعلم أن العربة فى طريقها ، فوضعت السيدة السماعة وطمأنت زوجها على طعام ليلة رأس السنة ، وسألته عن الويسكى وهدايا الاولاد .. وجلسا معا يكتبان فى بطاقات الدعوة للأصدقاء وبطاقات البريد الملونة للاقارب والمعارف فى أنحاء العالم : هابى كريسماس تو إفرى وان .. !

فاعل خير..؟

لاحظت المرأة أن ابنتها صارت بطيئة .. حركتها ثقيلة كأنها تجر جسمها جرا ..

وما كان جسم البنت كبيرا حتى يثقل عليها ..فرقبتها نحيفة ، وصدرها حبتا خوخ .. وتوقفت المرأة عند صدر ابنتها .. اذ فوجئت أن حبتى الخوخ نضجتا أكثر من المعتاد .. فالبنت ماتكاد تبلغ الرابعة عشرة !

ومنذ بدأت المرأة تلاحظ ابنتها ، أخذ هاجس الشر يزحم صدرها .. فالبنت تسير منفرجة الساقين أيضا وليس فى فخذيها امتلاء يبرر الانتفاخ ..

وفى صفحة وجهها الأملس الشاحب من سوء التغزية ، تتوهج تفاحتان صغيرتان يكاد جلد الخدين ينشق للدم المتدفق تحتهما .. بل أن عينى البنت تتألقان وتتسعان كما لو كان رأسها ساخنا وجسمها شبعانا ممتلئا ! .

وسقطت عيون الأم على بطن ابنتها فادركت الهول !

لم تكن على البطن مظاهر شذوذ . كانت غامضة لاتوحى بشىء إلا أن البنت تسير وكأنها تحملها .. وتحوطها بانتباهها وهى تتحرك كأن فى داخل البطن شيئا يضايقها .

تأكد لدى المرأة أن ابنتها حامل . وما تزوجت بعد ولم يخطبها أحد .

مدت يدها فاعترضت طريق البنت وقبضت على ذراعها الصغير وجذبتها خلفها إلى حجرة داخلية .

ومضت تفحص جسمها ..

فتأكد لديها ماخمنته . فسقط على قلبها حجر . حمل يقارب الثلاثة أشهر ..

بكت البنت وهى توضح أنه لاذنب لها فيما حدث .. كانت تحت الشجرة العجوز على الهضبة ، والغنم ترعى على مرمى حجر منها ، ولم تكن الشمس قد غابت بعد .. حين طلع عليها الرجل فجأة وأخذها .. وما استغرق الأمر سوى لحظات .. فلم تهتم بما حدث لكن المرأة لم تكن تسمع لها ..

اسود وجهها واكتسى جهامة .. وانشغلت بالتفكير فى زوجها الذى مات دون أن ينجب ولدا .. وعلا صوتها تبكى وتؤنب زوجها على ذلك ..

فلو فعل لما كانت الآن فقيرة وضعيفة ووحيدة ..

وكانت البنت قد سرقها النوم حين هدها التعب لرؤية امها وهى تنهار .. بينما بقيت المرأة صاحية أمام الفرن تحدق بعينين غائرتين فى فوهته الخالية من النار ، بينما خيالها يجسد لها العار والشنار الذى تزدحم به أيامها القادمة .. حين تروح ابنتها وسط النجع وتجىء ، وبطنها بارزة أمامها ..

وقبل الفجر بقليل نهضت المرأة بتصميم وجمعت حوائجها وأيقظت البنت .. ومشت تخب فى ردائها الطويل الأسود الفضفاض وابنتها خلفها .. حتى غادرتا النجع قبل أن يستبين الضوء ..

وطلع عليهما النهار وهما تهبطان التل إلى السفح .. وكانت المرأة كبيرة ومستهلكة ، تنوء بما تحمل من هموم وحوائج .. إلا أنها تتحامل على نفسها وتغذ السير ..

وبين الحين والحين تدير وجهها الصخرى إلى البنت فتهرول البنت خلفها وهى تخفض عينيها المنكسرتين .. كأنما العار يغذ السير خلفهما ويطاردهما .

وانقضى النهار دون أن تتوقفا ..

ومالت الشمس للغروب وقد أشرفتا على قرية بحافة الوادى فتهالكت المرأة على الجسر عاجزة عن الإستمرار .. وأخذت تدعك قدميها المتورمتين وتتوجع وتولول نادبة بختها ..

ونزلت البنت من حافة الجسر وملأت ماء سقت منه أمها .. وبللت لها وجهها .. وربطت لها قدميها .. لكن المرأة لم تكف عن العويل ..

وقد عبر رجل ورأى المرأة تبكى فتوقف وسألها عما بها .. كان كبيرا بارز العظام غليظ العنق فحكت له حكاية ابنتها .

نظر الرجل تجاه البنت فنكست البنت وجهها .. وأخذ يفكر بينما المرأة تندب زوجها الذى مات دون أن ينجب لها ولدا .

قال الرجل لنفسه : افعل خيرا مرة .. تلك امرأة ضعيفة لارجال لها ..

كان قاتلا محترفا وسارقا وهجاما لكن الزمن لايدوم !

قال لنفسه : بدأت الشيخوخة تزحف وليس معك شيئ للآخرة .. كل مافعلته أخذت أجره وزيادة .. !

وربت الرجل على كتف المرأة وطيب خاطرها .. وحمل عنها حوائجها ثم تقدمها فى الطريق إلى بيته .

فى البيت قدم لهما الطعام فأكلا .. وفرش لهما فراشا ، وطلب من المرأة أن تنام وتلقى بالهم عنها فسوف يحمل عنها همها .

وحين أقبل الليل بسواده على القرية كالكفن قام الرجل إلى البنت النائمة وأطبق على عنقها فكسره .. ثم وضع جثتها فى زكيبة حملها إلى النهر وألقى بها .

ثم عاد إلى البيت فنام منشرح الصدر ..

وفى الصباح جهز للمرأة فطورا ، ووضع حوائجها على حماره وأركبها عليه ، ومشى إلى جوارها يقودها إلى قريتها .

وكانت المرأة ترفع وجهها ناحية الرب وهى راكبة ، وتتمتم بالدعاء للرجل .

إمرأة فى رحلة..؟

لا ندرى بالضبط متى يخرج الواقع من الحلم ومتى يعود الحلم فيملأ الذاكرة من جديد ، فالماضى والحاضر يتداخلان كما يحدث دائما حين يكون الإنسان فى حالة مراجعة استعدادا لإصدارقرار هام ..

كما أن الحركة تكون بطيئة متثاقلة فى البداية .. متأملة كأنها ذهن السيدة الشارد ، يزحف على رف المدفأة وصورالجدران وستائرالنوافذ الفخمة التى اختارتها وصممتها بذوقها الخبيرالمشهود له.. ثم تستقر العينان مع ذهن السيدة الشارد على مائدة الشاى الأنيقة الواقفة على عجلاتها بجوارالسرير ، لم تمتد يد إلى الأطباق التى عليها بعد .. فالوقت صباح مبكر.. والسيدة فى ملابس السفر .. والبيت كأنه ليس بيتها وهو فى الحقيقة بيتها !

فما تكاد تسمع صوت الأقدام خارج الغرفة حتى تختبئ فى فتحة دولابها الأنيق المزدحم بأثوابها الأنيقة .. وتنهمك فى نقل بعض هذه الأثواب إلى الحقيبة المفتوحة على الفراش دون اختيار ! .

وحين يقترب الرجل من فتحة الباب وهو ما يزال فى ملابس النوم الفاخرة ، يلمح السيدة فى ظلال الدولاب فيذهب إليها .. قصير وممتلئ نوعا ، لكنه يتحرك بمهابة كأنه شخص هام أوشئ ثمين !

كل منهما يحدق فى الآخر كأن بينهما حوارا مقطوعا لا يدرى أيهما كيف يبدأه ..

يقول الرجل : لم توقظينى لأصحبك .. !

تقول السيدة : لم أشأ أن أثقل عليك .. !

هما رجل وامرأة يواجه كل منهما الآخر فى لحظة شديدة الضيق ، يمتد عمرها فى عمق الزمن سبع عشرة سنة .. نراهما عن قرب ونتأملهما فنجد أن كلا منهما مطابق للآخر فى تعاظمه ، ومتواز معه ، ومناسب له .. ثم تجئ جملة الحوار المقتضبة فنفهم أن البيت بيتهما معا .. فهما زوجان ..

ويضع الرجل ذراعه حول المرأة بحنان ويجذبها خارج ظلال الدولاب ويقبلها برفق ثم ينظر فى ساعته ويقول أنها تأخرت عن موعد الرحلة .. وأنه سوف يصحبها إلى القطار بسيارته .. فتقول هى أن زملاءها ينتظرون فى مقر العمل حيث يكون اللقاء ، وسوف يتحركون جميعا إلى القطار معا .. لكنه يصر ...

ثم نراهما فى سيارته يغادران الفيلا الهادئة ، والحى الهادئ ، إلى قلب المدينة الذى بدأ ينبض بحركة الصباح المبكرة .. ويظلان

صامتين حتى تتوقف السيارة أمام المبنى الذى يضم مقرعملها ، فيتبادلان النظرات ، وتبتسم له مودعة وتشكره بينما يحدق فى وجهها بقلق .

وحين تستدير لتحمل حقيبتها من المقعد الخلفى ، تطبع على وجنته قبلة شديدة الشبه بتلك القبلة التى طبعها على وجنتها حين أخرجها من ظلال الدولاب فى غرفة نومها ، وتتجه إلى المبنى مسرعة .. فيظل يتابعها بعينيه القلقتين حتى تختفى داخل المبنى ، ويبقى شاردا بينما عيناه تحملقان فى المدخل الكبير الفارغ الذى إبتلعها...

ثم ينتبه ، ويدير محرك السيارة ، وينطلق بها وقلبه عامر بالهزيمة..

فما تلبث المرأة أن تظهر من جديد فى مدخل المبنى ، وتنادى تاكسى تركبه بحقيبتها ، ثم تتنهد وهى تريح رأسها على مؤخرة مقعده .. بينما ينطلق بها فى إتجاه مختلف .

***

ترى نفسها مع رجل آخر، أقل عظمة وأكثر حيوية .. كانا ملتحمين على مدى ساعات إلتحامهما المتوهج المعتاد الذى لا يكاد يطفئ الظمأ حتى يشعله من جديد ، مرة بعد مرة ، فلا يعرفان طعم الشبع كأن كلا منهما قد خلق للآخر وظل يبحث عنه حتى إلتحما ، ورغبا فى أن يكون الألتحام أبديا .. لكن الأبدى مستحيل . تلك العيون

التى تتسع محملقة فى الآخر ، مترعة باللذة والوجل فى نفس الوقت .. تلك العيون التى تتسع محملقة فى الآخر تنقب عن منفذ إلى الأبدى .. عن منفذ إلى المستحيل ، تؤكد أن الجسد يشبع لكن الروح تظل تعانى من الظمأ ...

وتقول له : أشعر بأنى سعيدة فعلا .. أنا لم أعرف تلك اللذة فى حياتى من قبل ..

ويقول لها : ألا تنامين معه ؟ !

يفاجئها بالسؤال فتخبو ابتسامتها ، وتقول بحسم : حجرته فى الناحية المقابلة ..؟

ويظل حبيبها واجما يتشبث بالصمت .. فتقبله فى عنقه وهى تغمغم : قفل محكم هذا الجسد الإنسانى ، لا يفتحه سوى مفتاحه .. ؟

وينهض جالسا فى الفراش فتفاجئه صورتهما المنعكسة على المرآة الكبيرة .. لهما نفس العمر ونفس الشكل وكأنهما قد ولدا معا ، الآن فقط .. على هذه الصورة !

ويتجولان داخل البيت فيرى صورالعائلة على الجدران ، وصورة زوجها ، ويرى المتكأ الوثيرالخفى الذى تختلس فيه محادثاتها التليفونية معه .. ويدخل غرفة الأولاد فتفزعه بعض اللعب .. ويزداد إنقباضه .

لهما نفس العمر، لكنها تملك سبع عشرة سنة من الحياة فى ذلك البيت .

تقول له : كل ما عشته كان عبثا .. كأنى كنت أنتظرك .. !

هو لا يرد ، فتتعلق بعنقه .. وتقول أن الحياة تبدأ فقط وهما معا .. فيقول لها : هذا ليس بيتنا .

***

يتوقف بها التاكسى أمام محطة القطاروتأخذ حقيبتها وتغادره .. ونراها مسرعة بحقيبتها على الرصيف بجوارالقطار، باحثة بعينيها فى أرقام عربات النوم ونقفز الفرحة إلى عينيها وتخطوملهوفة حين ترى حبيبها يستقبلها على باب إحدى العربات ..

يحمل عنها حقيبتها ويأخذ يدها بإبتهاج .. ويقودها إلى كابينة النوم التى حجزها ، وكأنما القطار ملك له وقد أعده لها .. وكأنما القطار رمز لتلك الرحلة القصيرة من العمرالتى قطعاها معا .. فيلقى بالحقيبة ويعانقها بلهفة فتقطع العناق دقة بالباب .. ويدخل عامل القطار لتجهيز السريرين اللذين يعلو أحدهما فوق الآخر ، فيقول له الرجل : واحد فقط .. الآن على الأقل .

***

ترى نفسها مع حبيبها فى مكان مكشوف ، حولهما موائد متناثرة فى حديقة ممتدة على النيل مدثرة بإضاءات ملونة مختفية فى الأشجار .. وعلى موائد الخيزران ومقاعدها حوار هامس ، مكرر ومعاد منذ آدم الأول وحواء الأولى .. ويقترب منهما الجرسون فيطلب منه

حبيبها زجاجة بيرة ، ويؤكد عليه أن يحضرها مثلجة جدا .. وتسأله هى عن سودانى ، فيجيب بالنفى وهو يدون البيرة فى دفتره الصغير.. فتطلب منه أن يحضر مع البيرة طبقا من رقائق البطاطس المحمرة .

وينظر كل منهما للآخر بعينين ورديتين ويمد ذراعه فتتلامس الأيدى وتتعانق الأصابع مشبعة بدفئ الحنان والحب .. بينما تنعكس خلفهما على صفحة النيل رقائق معدنية لألاءة متألقة من أنوارالبيوت و الكازينوهات .. ويقول لها : وددت لو أنى لقيتك فى الخامسة عشرة ؟.. وددت لو أنك عرفتنى وأحببتنى فى تلك السن .. فتبدى دهشتها من رغبته فى أن تحبه مراهقة فى الخامسة عشرة !

يقول لها : ليس هذا ما قصدت .. أريد أن أحذف من حياتك كل ما كان .

***

نراهما فى فراشهما المهتز داخل القطار ، على السريرالوحيد المعد فى كابينة النوم الضيقة ، وقد إستكانا لنوع من النبض العذب المعبر عن راحة الجسدين المحتفظين بعناقهما ..

وتقول له : أنا لست إمرأة مثل كل النساء ..؟

ويقول لها : بل قد لا تكونين إمرأة ..!

كانت تبدوله فى جوهرها الخالص .. لها وجه المرأة أو وجه الحظ أو وجه المجد .. أو وجه الحياة المتقلب المتجدد دائما ، ولن تكون سوى

القمة البراقة التى تتجه إليها وتتهالك عليها مطامع الرجال والواحة التى تلهب ظمأهم ولا تطفئه أبدا ، المكان الذى لا ظل للرحمة فيه حيث يتلاقى الأمل المرغوب بالوهم المتبدد ، وكلاهما وفىّ للآخر ذلك الوفاء الفاجع المحزن .. .

ويقول لها : لك فضل من غيرنى من اللعب بالأشياء ، إلى التفكير فى الأشياء .!

وتقطع خلوتهما دقة بالباب ، فينتبهان إلى أنهما فى قطار.. وأن القطار يسير بسرعة هائلة .. فينهض الرجل ويستر نصف جسده ، ويمد ذراعه بالتذاكر لمفتش القطار من الباب الموارب .

***

ترى نفسها مع حبيبها فى أماكن كثيرة مختلفة ، ومواقف كثيرة مختلفة ، على مدى السنوات التى عاشاها معا بعد إنفصالها عن زوجها .. رجل وإمرأة لهما نفس العمر ونفس الطموح والحيوية والأحلام .. ونفس الرغبات والنزوات .

ترى نفسها مع حبيبها فى أسواق ضواحى لندن الأسبوعية ، وفى متاحف باريس ، وبين أثارالإغريق القديمة فى اليونان ، وعلى شواطئ أزميرالتركية ..

ترى نفسها مع حبيبها وهما يحلقان فى سماء العالم ، كأنهما يقيمان إحتفالا دائما ومستمرا بإنتصارهما وتآزرهما خلال العراك

الإجتماعى البالغ الحدة الذى خاضته وهى تحاول الخلاص من حياتها القديمة .. يسبحان ويرقصان ويقيمان الولائم العظيمة لنفسيهما معا فى أحضان الطبيعة الخلابة .. وتقول له : لا تنظر لأحد وأنت معى .. أنا كل عالمك ...

وترى حبيبها يسحب التذاكر من يد المفتش ويغلق فتحة الباب ويستدير فى كابينة النوم فى القطار بينما تتأمله هى من فراش الكابينة الوحيد الذى يشغلانه معا ...

ويقول لها : تعبت من السفر .. تعبت من الإنتقال !

***

ترى نفسها مع حبيبها فى بيتهما معا ..

بيت صغير ناشئ لحبيبين لا يملكان فائضا كبيرا من المال ولا فائضا كبيرا من الحماس للإستقرار.. هى فى كامل زينتها وأناقتها ، وهو مشوش يبدو عليه التوتر ..

ويقول لها : لقد إستمتعت بكل شئ ، وزهدت فى كل شئ .. ولم تستطع أعاجيب ألف ليلة وليلة قضيتها فى السفر والحب أن تصرف عن قلبى وساوس الهم وهواجس القلق ..!

***

تراهما معا وقد ارتديا ملابسهما الكاملة يغادران كابينة النوم ، ويسيران فى طرقات القطار حتى يصلا إلى صالون الأكل لتناول العشاء..

ويراها هو وهى تتقدمه قوية البأس ، ذات أنوثة زائدة ، سكرانة بخمر العجب والتيه .. وكأنما صالون الأكل قد أصبح نموذجا صغيرا لكل المحافل الإجتماعية التى حضراها معا ، فتتصارع حولها عيون الرجال . ويتقدمها على سجيته إلى ركن ناء ، بينما تختار هى مائدة متصدرة .. فيعود إليها ويجلسان .. ويبدأ العشاء فوق عجلات القطار ، بينما هو شارد الذهن والنظرات ...

تقول له أنظر ...

ونراهما فى كابينة النوم بالقطار .. هو جالس على الفراش الوحيد بذهن شارد .. وهى قد أخرجت الحوض الأنيق من جدار الكابينة المصقول ، ووقفت تخلع ملابسها أمام المرآة ..

وتقول له : أنظر .. إن جسدى جميل .. أليس لى جسد جميل .!

فينهض واقفا ويلقى بسيجارته فى الحوض الأنيق أمامها ، ويستدير إليها متأملا ...

ويقول لها : شبعت من الأجساد .. شبعت من الأجساد .. لا أريد أن أحس أو أشعر، أريد أن أعرف ..

فتتأمل وجهه المنعكس على المرآة أمامها ، وقد بدا عليها الإنزعاج الشديد .

***

وترى نفسها مع حبيبها فى مجموعة سياحية تتوسط بهوفندق فاخر، فى جزيرة فاخرة .. وحبيبها منهمك فى حوارسياسى هام مع الغرباء .. بينما هى تأخذ جانب أحدهم فى الحوار ..

وترى نفسها وسط المجموعة السياحية متناثرين يتأملون بعض الأثار القديمة فى الجزيرة . وفى صحبتها ذلك الشاب الغريب الذى أخذت جانبه فى الحوار .. بينما حبيبها على مبعدة منهما ، منهمك فى ثقل الكتابة المطموسة على تمثال قديم ...

ونراهما معا يستعدان للنوم فى غرفتهما الفاخرة ، فى الفندق الفاخر، فى تلك الجزيرة الفاخرة ...

ويقول لها : أنت لا تحبيننى .. جسدك هو الذى يحبنى !

ونراهما معا على الفراش الوحيد فى كابينة النوم بالقطار .. هو مستند بظهره ، نصف قائم بينما هى نائمة تتوسد ركبتيه .. فيبدوان متقاطعين ، وكل منهما يحلق فى عالمه .

ويظلان هكذا فترة ، صامتين ، كأنهما صديقان قديمان ...

ويدخل عامل القطار فيبدأ فى إنزال السرير الآخر العلوى .. ويجهزه بالأغطية والملاءات ، فيعطيه الرجل بقشيشا كبيرا يشكره عليه وهو ينصرف ..

وتقول له : لن أشعر بإهتزازات القطار فى السرير العلوى .

***

ونراها فى الصباح المبكر واقفة بملابسها الكاملة أمام نافذة القطار فى الممر .. تتأمل الحقول والقرى والحيوانات والناس ، ومظاهر الحياة العديدة التى يعبرها القطارسريعا دون أن يتوقف لحظة أمام تفاصيلها الحيوية .. تتأملها شاردة الذهن .. وتختلط الصورالتى تتداعى من الماضى إلى ذهنها الشارد ، بالصورالتى تعبر مسرعة أمام عينيها الشاردتين فى نافذة القطار ...

حتى يخرجها من شرودها صوت الرجل من خلفها .. يقول لها : أوشك القطار أن يصل .. لم توقظينى لأستعد ..!؟

تراه واقفا خلفها فى بيجامة نومه ، نصفه فى باب كابينتهما المفتوح ونصفه فى الممر...

مشعث الشعر لم يغتسل بعد ...

وتقول له : لم أشأ أن أثقل عليك ..!

***

ونراهما يحملان حقيبتيهما ، ويتفحصان الكابينة بحثا عن شئ منسى .. ثم يأخذان مكانهما بين الركاب المقتربين من أبواب القطار الذى يتلمس موقفا له فى محطة الوصول ..

ونراها وهى تبحث بعينيها الملهوفتين بين الوجوه المنتظرة على الرصيف وهى تقفز بحقيبتها من القطار ..

فنرى على الرصيف رجلا ثالثا لم نره من قبل ، يقف فى استقبالها .. تراه فتبتهج .. وتندفع نحوه مهرولة .. فيتبادلان عناقا حارا .. وكأنما كل منهما كان ينتظر لقاء الآخر ، منذ بدء الخليقة .. ويعبر بهما حبيبها فى طريقه دون أن تلتفت له أو يلتفت لها .. بينما يحمل عنها الرجل الثالث حقيبتها إلى سيارته الواقفة على مقربة .

ذكريات..؟

نام بعد الغذاء ساعة واستيقظ ممتلئا ، فذهب إلى الحمام وأفرغ نفسه .. ثم خلع ملابسه ووقف عاريا تحت الدش ، ومضى يغمر جسده الخمسينى بالماء وهو يلاحظ بفخر تلك السمرة المحببة التى اكتسبها جلده من شمس الشاطئ ، فى تلك الأيام العشرة الأخيرة من سبتمبر .. أجازته السنوية .

كان الخصر ممتلئا بعض الشئ ، والبطن قد اكتنز وبدأ يبرز قليلا للأمام ، والفخذان قد ازدادا نحولا ، لكنه على العموم كان راضيا .. فبعد عشرة أعوام من الحياة الزوجية لابد أن يصيب الرجل شئ من التهدل .. ! .

لا بأس فها هو على الأقل قد استطاع أن يسبح طوال الأيام العشرة الماضية ، وقد عرض هذا الجسد للشمس والهواء ليذيب أكبر كمية من الدهن الذى ظل يتكدس تحت جلده ويغطى عضلاته التى بدأت الآن تظهر بعض الشئ ...

خبط الماء المنهمر بكفه خبطة حاسمة فقطعه وأطاح به ناحية الحائط .. فى مثل تلك الأيام الخريفية من سبتمبر ينتابه نوع من القلق يتحول إلى عذاب شخصى ، يستمر فترة من الوقت .

هو شعور داخلى ، ربما يكون موازيا لما يحدث فى الطبيعة من تغيرات ... حيث تزداد السحب كثافة ، ويخبو وهج الشمس ، وتظهر الأشعة كأنها مغموسة فى الدموع ، وتصبح النسمات باردة .. ويبدو الأمر وكأن قلب الطبيعة يشعر بالحزن ! ..

لقد أكل فى الغداء ثلاثة سمانات محشوة بالزبيب والبصل .. وماذا فى ذلك ؟ .. لم يكن وحده فى تلك البقعة الصغيرة من العالم ، الذى أكل فى الغداء سمانا .. كان واثقا أن الرجال والنساء والأطفال الذين رآهم فى الصباح عراة على الشاطئ ، قد أطالوا بقاءهم فى ذلك المصيف حتى هذه الأيام الأخيرة من سبتمبر ، ليأكلوا السمان والسردين ...

لكنه كان الوحيد تقريبا الذى أخذ يفكر وهو يمضغ فى تلك السمانات المسكينة التى سقط البرد على موطنها فى سيبيريا ، فهاجرت وعبرت البحر الأسود والبحر الأبيض فى سفر مستمر ، وهى تحلم بالدفء والحب على الشاطئ الشمالى لأفريقيا .. لتستقر فى نهاية الأمر محشوة بالبصل والزبيب فى معدته .. !

وانساق وراء فكره ، ومضى يتصور تلك الأسراب من الطيور الوديعة المنهكة وهى تصطدم بالشباك المنصوبة لها وتتخبط فيها ..

وهذا الكم الهائل من سمكات السردين الفضية المهاجرة من الأطلنطى .. ما تكاد تشرف على نهاية رحلتها وتتذوق طمى النيل الممتزج بالبحر حتى يحاصرها الصيادون وينشلونها من الماء .. أى مذبحة مروعة تلك التى تحدث فى سبتمبر ؟ ! .

كان مشبعا فأخذ يقفز تحت الدش ، ويحرك جسده وذراعيه بعشوائية صاخبة كما كان يفعل وهو صغير فى حصة الألعاب بالمدرسة الابتدائية ..؟

« لو عدت لذلك الفعل مرة ثانية سأقصف رقبتك » !

وابتسم وهو يغمر نفسه داخل الماء .. لقد مضى على ذلك أربعون عاما ، على أقل تقدير ...

أربعون عاما ، منذ كان صغيرا .

أربعون عاما منذ ...

وقطعت خواطره دقات على باب الحمام ، ثم جاءه صوت زوجته يتعجله :

– الساعة بقت أربعة ، حاتنزل البلد امتى ؟ ! ..

كان عليه أن ينزل من المصيف إلى البلدة المجاورة ليحجز للأسرة مقاعد فى البولمان الذى يغادر المصيف صباح اليوم التالى إلى القاهرة .. فبعدما رحل غالبية الناس من المصيف ولم يبق سوى قلة قليلة من أمثاله ، نقلت شركة الأتوبيس مكتب الحجز إلى البلدة .. وكان قد